أثر دلالة السياق اللغوي في توجيه معاني ألفاظ الدعاء
"دراسة تطبيقية على بعض آيات الدعاء في النص القرآني

د. ريما أحمد الكبيّر، كلية اللغات والترجمة - جامعة الزيتونة.

الملخص:

إنّ الدعاء من العبادات الجليلة التي حثَّ عليها الشرع ورغّب فيها، فالعبد فيها يكون قريباً من الله تعالى، واقفًا بين يديه، سائلًا حاجته متوسلًا إليه بأسمائه وصفاته، ومتوجهًا إليه بقلبه مثنيًا عليه بلسانه، ليس هناك واسطة بينه وبين الله عز وجل.

فتعددت الآيات القرآنية التي اشتملت واحتوت على أدعية في مضمونها الدعاء للإنسان والدعاء عليه، فتكاد تكون أغلب السور مشتملة على آيات دعاء، وهذا إن دل على شيء فنجده يدل على أهمية الدعاء في حياة المسلم، لأنه وسيلة من الوسائل التي تُقرب العبد من ربه.

ويتكون البحث من أربعة محاور هي: التعريف بالدعاء لغةً، واصطلاحًا، والأساليب النحوية في صيغ الدعاء، وآيات الدعاء للإنسان، وآيات الدعاء على الإنسان، وقد وقع اختيارنا على بعض منها كنماذج تطبيقية لكونها تخدم موضوع البحث، وباعتبار أنها أشهر الآيات المتضمنة للدعاء بالأسلوبين المذكورين.

وقد توصل البحث إلى نتائج عدة من أهمها أنّ دعاء الكافرين في الحياة الدنيا، تسبقه "لولا" غالبًا، أمّا في الحياة الآخرة فتغيب عنه "لولا"، وينوب عنها الاستفهام.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن الدعاء هو عبادة تقوم على سؤال العبد ربه، والطلب منه، ويجسد الدعاء العبودية والخضوع لله وحده، فالدعاء يمثل جانبًا مهمًا من جوانب اتصال العبد بمعبوده، وهو وسيلة للتعبير

عن الحاجة، والتضرع، والرجاء، وقد وردت العديد من الإشارات في القرآن الكريم تناولت الدعاء، سواء، كان الدعاء للإنسان بالخير، أو الدعاء عليه.

أسباب اختيار الموضوع:

ولقد اخترت أن أدرس الألفاظ والأساليب في بعض آيات الدعاء في القرآن الكريم؛ لمعرفة أثرها الدلالي في الدعاء على الإنسان والدعاء عليه.

مصطلحات الدراسة:

وبناءً على ذلك شملت الدراسة، تعريف الدعاء لغة واصطلاحًا، وأساليب الدعاء في القرآن الكريم. آيات الدعاء على الإنسان، والدعاء عليه.

منهج الدراسة:

أمّا المنهج المتبع في هذا البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي، الذي يُعد من أفضل المناهج لهذا النوع من الدراسة، لما يقدمه من توصيف وتحليل لألفاظ الدعاء للإنسان والدعاء عليه في بعض آيات الدعاء في القرآن الكريم، ومن خلاله يمكن أن يحقق البحث أهدافه المرجوّة.

الدراسات السابقة:

سعت الباحثة منذ البداية عند اختيار موضوع بحثها إلى معرفة إذا سبُقِت دراسة الموضوع، وقد توصلت إلى بعض الدراسات التي تبحث في آيات الدعاء، ولا علاقة لها بتحليل الألفاظ والأساليب في بعض آيات الدعاء، وثمة دراسات عديدة اتخذت من دراسة الدعاء بالألفاظ واللهجات، في القرآن الكريم ميدانًا للدراسة، منها:

- من بلاغة الدعاء في القرآن الكريم، فاطمة محمد النجار.
- أدب الدعاء في نهج البلاغة، (دراسة دلالية)، هناء عبد الرضا رحيم، ومرتضى عباس فالح.
- لمحات دلالية حول ألفاظ الدعاء ترسل على ألسنة العرب، صفوت محمود المتولي.
- من بلاغة بعض الأدعية في القرآن الكريم، يحي بن محمد إبراهيم عطيف.

- آيات الدعاء في القرآن الكريم، حسين علي خليف الجبوري.

الدعاء لغةً:

دَعَا، دُعَاءً، ودَعْوَى، الرغبة إلى الله تعالى. **(الفيروز أبادي: 327)**. والدُّعَاءُ: واحد الأدعية، ودعَا الرجلَ دعوًا ودعاءً: ناداه، والاسم: الدعوة ودعوتُ فلانًا: أي صِحتُ به واستدعيتُه، وأصله دُعَاو، لأنه من دَعَوْت، إلا أن الواو لما جاءت متطرفة بعد الألف هُمِزت. **(ابن منظور: د ع و)**.

وكلمة الدعاء في الأصل مصدر من قولك: (دعوتُ الشيء أدعوه دعاءً) وهو أن تُميل الشيءَ إليك بصوت وكلام يكون منك. **(انظر: ابن فارس: 279/2)**.

والدُّعَاءُ جمع أدعية، وهو ما يُدعى به الله من القول. **(الزمخشري: دُعَاءُ)**.

و (دَعَوَ) الدال، والعين، والحرف المعتل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء بصوت وكلام يكون منك. تقول: دعوت أدعو دعاءً. (ابن فارس: **(باب الدال والعين وما يثلثهما): 280/2)**.

والدعاء للقريب والنداء للبعيد، والداعي المضطر فله الإجابة، والسائل المحتار فله المثوبة. **(يُنظر: الكفوي: 447)**.

الدعاء اصطلاحًا:

من المعلوم أن الدعاء هو الطلب من الأدنى إلى الأعلى، على جهة الخضوع والاستكانة.

والدعاء هو دعاء العبد ربّه جلّ وعلا، وطلب العون منه، مع إظهار الافتقار إليه، والبراءة من حول الإنسان وقوته، إلى حول الله وقوته.

ويمكن القول بأن الدعاء هو الثناء على الله، وإضافة الكرم والجود إليه.

وهو التضرع في الخفاء من الله المعبود.

والدعاء هو العبادة، كما ورد في قوله - ﷺ - عن النعمان بن بشير - ﷺ - أنّه قال: (إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ **(غافر: 60)**. **(ابن حنبل: 17660 ج/4)**.

فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة، وقيل أنّ الدعاء هو الذكر والسؤال. **(القرطبي: 326/15)**.

وقِيل هو الرغبة إلى الله عز وجل. **(ابن منظور: د ع و)**.

ونجد له عند العلماء تعريفات عدة منها ما عرّفه به الشوكاني بقوله: ((المراد بالدُّعاء السؤال بجلب النفع ودفع الضُّر)) **(الشوكاني/ 498/4)**

وعرّفه كذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: ((طلب ما ينفع الدَّاعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه)). **(ابن تيمية: 10/15)**.

وأورد له الخطابي تعريفًا مضمونه: ((استِدعاء العبدِ ربَّه عزّ وجلَّ العناية واسْتِمْدَادُه إيَّاهُ المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتَّبرُّؤ من الحول والقوة، وهو سِمة العبوديّة، واستشعار الذلة البشريّة، وفيه معنى الثناء على الله عزّ وجلّ)). **(الخطابي، 4)**.

الأساليب النحوية في صيغ الدعاء:

الدعاء يأتي على صورة الأمر، والنهي، ونجد هذا واضحاً في كلام سيبويه، إذ يقول: ((واعلم أن الدعاء يأتي بمنزلة الأمر، والنهي، وإنما قيل: (دعاء)؛ لأنه اسْتُعظِمَ أَنْ يُقال: أمر أو نهي، وذلك قولك: اللهم زيدًا فاغفر ذنبه)). **(سيبويه: 142/1)**.

ونجد السيرافي قد علق على كلام سيبويه قائلاً: ((والدعاء وإن كان لا يُسمى أمراً على ما ذكرنا فسبيله سبيل الأمر في الإعراب من كل وجه، وهو ـ أيضاً ـ في المعنى مثل الأمر، وذلك أن الداعي مُلتمِس من المدعو إيقاع ما يدعوه به، كما أنّ الآمِر مُرِيدٌ من المأمور إيقاع ما يأمره به)). **(السيرافي: 19/4)**.

ونجد أن الرضي قد أوجد تعليلًا لإطلاق مصطلح (الأمر) على ما يدل على الدعاء وغيره بأنّ استعمال صيغة الأمر ((في طلب الفعل على وجه الاستعلاء، وهو الأمر حقيقة أغلب وأكثر ...وكذا الكلام في النهي؛ فإن قولك: لا تؤاخذني، في نحو: اللهم لا تؤاخذني بما فعلت، نهيٌّ في اصطلاح النحاة، وإنْ كان دُعَاء في الحقيقة)). **(الرضي: 267/2).**

وقد أطلق اللغويون على صيغ الدعاء مصطلح النهي والأمر، في الصورة اللفظية، وفي ذلك يقول ابن يعيش: ((الأمر معناه طلب الفعل بصيغة مخصوصة، وله ولصيغته أسماء بحسب إضافاته، فإن كان من الأعلى إلى مَنْ دُونه، قِيل له أمر، وإن كان من النظير إلى النظير، قيل له: طلب، وإن كان من الأدنى إلى الأعلى قِيل له: دعاء)). **(ابن يعيش: 58/7).**

- آيات الدعاء للإنسان:

أولًا: الدعاء بأسلوب الأمر:

إن الأصل في الدعاء يأتي على صورة صيغة الأمر، وهو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء مع الالتزام. **(الهاشمي: 71).**

وقد يخرج الأمر عن معناه الأصلي إلى معانٍ بلاغية عدة، تُفهم من السياق، وما يعنينا هنا هو خروج الأمر إلى معنى الدعاء.

ونرى أن السرّ في أن يأتي الدعاء بأسلوب الأمر بدلًا من أسلوب الخبر، للتفاؤل بالاستجابة، وكأن الدعاء متحقق على الفور.

مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ **(المائدة : 114).**

وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (**إبراهيم: 37**).

فنرى في الآيتين أن لفظتي (أَنْزِلْ) و(ارْزُقْنَا) في سورة المائدة، ولفظتي (اجْعَلْ) و(ارْزُقْهُمْ) في ظاهر الأمر صيغ أمر، ولكن هناك إرشادات دلالية ذات ارتباط بالقيم العقيدية في عبادة الدعاء، إذ نجد أن هناك مقصد الطالب في أن يحقق الله (للمخاطب) مطلوبه؛ لأنه قادر على إنجازه وتحقيقه، وهناك إشارات لغوية وهي أن الجزم في فعل الأمر يعود إلى أن معنى الإمكان الموجود فيه، فكل أمر هو تحقيق فعل بعد وقت التلفظ، فالأمر المطلوب لا يزال في عداد المشروع أو الممكن، فقد يحدث أو لا يحدث. **(الأزهار: 120)**.

وكذلك نجد جملة (إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي)، مستأنفة لابتداء دعاء آخر، وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع، وأضيف الربُّ هنا إلى ضمير الجمع خلافًا لسابقيه؛ لأنّ الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه، ولعل إسماعيل – عليه السلام – حاضر معه حين الدعاء. **(ابن عاشور: 260/13)**.

ومن أسلوب الدعاء بلفظ الأمر قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ **(نوح: 28)**.

نجد هنا أن سيدنا نوح - عليه السلام – قد جعل الدعاء لنفسه ولوالديه خاتمة مناجاته فابتدأ بنفسه، ثم بأقرب الناس به وهما والداه، ثم عمّهم أهله، وذويه المؤمنين فدخل أولاده

وبنوهم والمؤمنات من أزواجهم، وعبّر عنهم بمن دخل بيته كناية عن سُكْناهم معه. **(ابن عاشور: 215/29).**

ونرى في جزم لفظة (اغْفِرْ) دلالة لغوية وهي أنه بالإمكان الغفران من عدمه، وإن كان الفعل بصيغة الأمر، فالغفران قد يحدث، وقد لا يحدث، وصيغة الأمر هنا من باب التفاؤل بالاستجابة، والأمر هنا بصيغة (افعل)، ومعناه بصيغة (ليفعل)أي (ليغفر الله لي ولوالدي).

وهناك خلاف بين النحويين في أصل فعل الأمر، هل هو (افعل) أو (ليفعل)، فذهب فريق إلى أن الأصل (ليفعل)، وحجتهم في ذلك أن الأمر معنى، والأصل في المعاني أن تُستفاد بالحروف كالنهي وغيره، وذهب فريق آخر إلى أن الأصل(افعل)، وحجتهم أنه يفيد المعنى بنفسه بلا واسطة بخلاف (ليفعل)فإنه يُستفاد من اللام.**(الزركشي: 269/3).**

ومن صيغ الدعاء بلفظ الأمر قوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ **(الشعراء: 84- 85 – 86).**

فجاءت لفظة (اجْعَلْ) ولفظة (اغْفِرْ) على وزن (افعل)، فاللسان مراد به الكلام من إطلاق اسم الآلة على ما يتقوم بها، واللام في قوله (لي) تقتضي أن الذكر الحسن لأجله، فهو ذكره بخير، وإضافة (لسان) إلى (صدق)، من إضافة الموصوف إلى الصفة، ففيه مبالغة الوصف بالمصدر، أي: لسانًا صادقًا. **(ابن عاشور: 146/19).**

ومن صيغ الأمر التي جاء بها الدعاء لفظة (غُفْرَانَكَ) في قوله تعالى:﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ **(البقرة: 285).**

هذه اللفظة الوحيدة التي وردت بصيغة المصدر النائب عن فعل الأمر، ونُصبت على جهة نصب المصادر، مفعول مطلق، والعامل فيه فعل مقدر، تقديره: (اغْفِرْ غُفْرَانَكَ). **(ابن عطية: 392/1).**

ثانيًا: الدعاء بأسلوب التمني:

نلاحظ أن الدعاء بأسلوب التمني في القرآن الكريم يأتي في الغالب لخطاب الكفار، ويكون في الغالب الحياة الدنيا،، وتصدره (لولا)، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ **(النساء: 77).**

فهذا السياق لا يصدر إلا من منافق، و (لولا) للتحضيض، بمعنى (هلّا)، وهي كثيرة في القرآن، والأجل القريب هنا هو موتهم على فرشهم. **(يُنظر: أبو حيان 298/43).**

ومن الدعاء بأسلوب التمني دعاء الكفار وقد جاء بالتحضيض، قوله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾. **(طه:134).**

فنجد لفظة (لَوَلا أَرْسَلْتَ)، أي (هلّا أرسلت) ف(لولا) حرف تحضيض، مُستعمل في اللوم أو الاحتجاج؛ لأنه قد فات وقت الإرسال، فالتقدير: هلّا كنت أرسلت إلينا رسولًا، وانتصب (فَنَتَّبِعَ) على جواب التحضيض باعتبار تقدير حصوله فيما مضى. **(ابن عاشور: 347/16).**

وهناك تجاسر وتجاوز في دعاء الكافرين على الله إذ قال الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾ **(الفرقان: 21).**

فنراهم هنا قد عظّموا أنفسهم سألوا الله ما ليسوا له بأهل؛ لأنّ الملائكة لا تُرى إلا عند الموت، أو عند نزول العذاب؛ ولذلك وصفهم الله بالعتو، ومعناه (صَعَبُوا على الحق واشتدوا ويُقال: عِتِيٌّ وعُتُوٌّ، عُتُوٌّ على الأصل، وعِتِيٌّ لاستثقال الضم على الواو فقلبت ياءً ثم كُسِر ما قبلها طلباً للتناسب). **(ابن عطية: 205/4).**

والذي يظهر هنا في هذه الآية أن الرجاء والبيت على بابه؛ لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبدًا برجائه، فإذا نُفي الرجاء عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مكذّب بالبعث لنفي الخوف والرجاء، وفي ذكر الكفار بنفي الرجاء تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاء الله تعالى.

وقد ورد في دعاء الكافرين أيضًا في الزمن الآخر عند الحساب، إلا أنه غاب عنه (لولا) في بنائه، وناب عنه الاستفهام الخارج للتمني، كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ **(غافر: 11).**

نرى أن هذه الآية جواب عن النداء الذي نودوا به من قِبَل الله تعالى فحكى مقالهم على طريقة حكاية المحاورات بحذف حرف العطف، طمعوا أن يكون اعترافهم بذنوبهم وسيلة إلى منحهم خروجًا ما ليستريحوا منه ولو بعض الزمن، وذلك لأن النداء الموجّه إليهم من قِبل الله أوهمهم أنّ فيه إقبالًا عليهم.

ويبدو أن المقصود من الاعتراف هو اعترافهم بالحياة الثانية؛ لأنهم كانوا ينكرونها وأمّا الموتتان والحياة الأولى فإنما ذُكِرْنَ إدماجًا للاستدلال في صلب الاعتراف تزلُّفًا منهم، أي أيقنا أن الحياة الثانية حق وذلك تعريض بأن إقرارهم صدق لا مواربة فيه ولا تصنّع؛ لأنه حاصل عن دليل، ولذلك جُعل مسببًا على هذا الكلام بعطفه بـ(فاء السببية)، في قوله: (فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا). **(ابن عاشور: 97/24).**

فمن خلال ما سبق نجد أنه سواء أكان بناء هذا التمني على "لولا" التي هي بمعنى "هلّا" أم على الاستفهام بمعنى "هل"، وسواء أكانت دلالة "لولا" التحضيض أم التمني، فإن تحولًا في الخطاب جرى في بنيته العميقة حتى انتهى في صياغته على هذه البنية السطحية، ذلك أن الداعي من الكافرين والمنافقين يحمل رغبة داخلية قلبية في النجاة، غير أنها تصطدم بواقع خارجي صعب المنال، كنزول الملائكة، ورؤية الله، والرجوع إلى الدنيا، فمن الأصل في خطاب هؤلاء في هذه الحال أن تتصدره "ليت" التي هي لتمني المستحيل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ (**الفجر: 24)**، ولكنهم رجعوا عن هذا الخطاب وعادوا إلى الخطاب الذي تتصدره "لولا"؛ لتحويل الواقع المستحيل إلى واقع ممكن، وهذا يتناسب مع الدعاء بـ "لولا" و "هل" و "ليت". **(ينظر: البحيري،2000: 97- 98).**

ثالثًا: الدعاء بأسلوب النهي:

إن الغرض من النهي في هذا المقام ليس النهي بحد ذاته، فخاشاه سبحانه وتعالى، إنما الغرض منه هنا هو الدعاء، فعندما نتوجه بالدعاء إلى الله، ونقول: يا رب لا تمتني إلا وأنت

راضٍ عني، فالغرض هنا هو الدعاء والطلب من الله تعالى؛ لأن لفظ الأمر إذا كان صادرًا من الأدنى إلى من هو أعلى فيكون طلبًا، والعكس بالعكس، وهذا غرض بلاغي نصّ عليه البلاغيون في مؤلفاتهم، وضربوا له أمثلة عديدة.

ونجد هذا واضحًا وجليًا في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ **(البقرة: 286).**

حيث نرى إن لفظة (لَا تُؤَاخِذۡنَآ)، ولفظة (لَا تَحۡمِلۡ)، ولفظة (لَا تُحَمِّلۡنَا)، ليست للنهي حاشاه سبحانه وتعالى، إنما المقام هنا للتضرع والخضوع، والتذلل، فالمؤمنون يبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى، والغرض من التعبير بالنهي هو الدعاء، وهو رغبة المؤمنين في أن يتجلّى الله عليهم بالرحمة، والغفران، وأن يحقق الله لهم دعاءهم، وإظهار كامل للتضرع والتذلل لله جل جلاله.

كذلك نجد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ **(الحشر: 10).**

إن دلالة "لا" الناهية، أو الجازمة، والتي تختص بالدخول على الفعل المضارع فتجزمه، وتخلصه للاستقبال، سواء أفادت النهي حقيقة، أو دعاءً، حيث إن معنى السلب هنا يؤول للإيجاب في الطلب، فلفظة (وَلَا تَجۡعَلۡ)، تتحول في الدلالة إلى (انزع من قلوبنا)، فالغرض من السؤال والطلب هنا أن الداعين سألوا الله أن ينزع من قلوبهم الغل والحقد لكل من آمن بالله.

ولمَّا كان الدعاء هنا جامعًا للخير، لقّنهم ما يجيبهم به في لزومه والتخلُّقِ به مع ما فيه من التملُّق للإله والتعريض له بقوة الرجاء، فقال: (رَبَّنَا إنك رؤوف)، أي راحم أشد الرحمة، لمن كانت له بك وصْلَةٌ بفعل من أفعال الخير. **(ينظر: البقاعي: 444/19).**

ونجد أن النهي في هذا السياق مرتبط بالدعاء للمستقبل، حيث ورد هذا صريحًا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ **(آل عمران: 194).**

فقوله: (وَلَا تُخۡزِنَا)، أي "لا تعذبنا"، ولا تهلكنا، ولا تفضحنا، ولا تهنا، ولا تبعدنا، ولا تمقتنا يوم القيامة، فورود الدعاء في هذه الآية جاء بالطلب في الدنيا "وَءَاتِنَا"، وفي الآخرة ورد بلفظ "وَلَا تُخۡزِنَا" فهناك اختلاف في فعل الطلب والقصد منه بين الزمانين؛ لأن الموعود في الدنيا هو النصر على الأعداء، فالمقصود من الدعاء في قوله: " وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ"، التعجيل، وهذا يعني أن الوعد كان لجميع الأمة.

فمن خلال ما سبق نجد أن تهيئة الفعل الطلبي للاستقبال، في الدعاء يمنحه امتدادًا للزمن واستمرارًا يتجاوز به الحال على المآل، فيرتبط الحضور بالغياب في أفق الأمل والرجاء.

رابعًا: الدعاء بأسلوب الشرط:

أسلوب الشرط هو الربط بين حدثين يتوقف ثانيهما على الأول، والغرض منه هنا هو الدعاء والخضوع لله، وإظهار التوسل والرجاء. **(يُنظر: السامرائي: 45/4).**

ومن خلال البحث في آيات الدعاء اتضح أنّ حرف الشرط "إنْ" هو الحرف الوحيد الذي دخل أسلوب الشرط في آيات الدعاء.

ونجد هذا واضحًا في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ **(الأعراف: 23).**

فقوله: (وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ)، جاء الدعاء فيها بصيغة الشرط، والتقدير يا رب اغفر لنا، وإنْ لم تغفر لنا سنكونوا من الخاسرين، والغرض هنا هو الدعاء والتوسل لله بأن يغفر الله لهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ **(يوسف: 33).**

فقوله: (وَإِلَّا تَصْرِفْ)، تقديرها: إنْ لا تصرف، فهي هنا مستعملة للتخوف والتوقع التجاءً إلى الله، وملازمة للأدب نحو ربه بالتبرؤ من الحول، والقوة، والخشية من تقلّب القلب، ومن الفتنة، بالميل إلى اللذة الحرام، فهو هنا مستعمل في الدعاء، حيث نجد جملة (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ) في الآية التي تليها، توضح الغرض من أسلوب الشرط في هذه الآية.**(يُنظر: أبو حيان: 273/6).**

آيات الدعاء على الإنسان:

إن الدعاء على الإنسان في آيات القرآن الكريم، جاء في سياقات مختلفة، وقد يكون نتيجةً، فقد يكون نتيجة ظلم، أو جهل، أو عصيان، ومع ذلك فإن الإسلام يحث على التماس الخير، والهداية للناس إلا في الحالات التي تستدعي عدل الله، وانتقامه من الظالمين، إذ يقول

الله - عز وجل- : ﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴾ (الإسراء:11)، وقد وردت آيات الدعاء على الإنسان في أساليب متنوعة.

أولاً: أسلوب الأمر:

من آيات الدعاء على الإنسان بأسلوب الأمر قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾. **(الأنفال: 32).**

نجد لفظة (فَأَمْطِرْ)، ولفظة (ٱئْتِنَا)، فكلاهما هذا جارٍ مجرى القسم، وذلك أنهم يُقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم إذ كان ما حصل في الوجود على خلاف ما يحكمونه، أو يعتقدونه، وهم يحسبون أن دعاء الإنسان على نفسه مستجاب، وهذه الطريقة مشهورة عندهم.

ومعنى كلامهم إن هذا القرآن ليس حقا من عندك فإن كان حقًا فأصبنا بالعذاب، وهذا يقتضي أنهم قد جزموا بأنه ليس بحق، وليس الشرط على ظاهره حتى يفيد ترددهم في كونه حقًا، ولكنه كناية عن اليمين، وبسبب جهلهم وضلالهم، يحسبون أن الله يتصدى لمخاطرتهم، فإذا سألوه أن يمطر عليهم حجارة إنْ كان القرآن حقًا منه أمطر عليهم الحجارة، وأرادوا أن يظهروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقيّة القرآن فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقًا من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أن القرآن ليس من عند الله، وذلك في معنى القَسَم كما عملت.

وتعليق الشرط بحرف "إنْ"؛ لأنهم بنوا ادعائهم على عدم اليقين، بوقوع الشرط، فهم غير متأكدين بأن القرآن حق ومنزل من عند الله، بل متيقنين بأنه غير حق، واليقين بعدم الحق أخص من اليقين بالحق.

وكذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾. **(يونس: 88).**

نجد لفظة (ٱطْمِسْ)، ولفظة (ٱشْدُدْ) وردا بصيغة الأمر، والمقصد منهما هنا هو الدعاء عليهم، فهذا الدعاء هو دعاء سيدنا موسى – عليه السلام – على فرعون وقومه، [أن يبدل الله أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها، وأن يطبع على قلوبهم حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان حتى يروا العذاب الأليم.

وقد حملت "اللام" في "لِيُضِلُّوا"، على التعليل، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال، ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان، افتتح موسى الدعاء بالنداء؛ لمناسبته لمقام الدعاء، ونادى الله بوصف الربوبية تذللًا لإظهار العبودية.

و"الفاء" السببية في قوله (فَلَا)، هنا واقعة في جواب الدعاء، أي: افعل بهم ذلك ليؤمنوا، وهذا إيجاز بديع، حيث جمع في هذا التركيب جواب الدعاء، وبيان علة الدعاء عليهم بذلك.

والأصل في الكلام: فيؤمنوا فإنهم لا يؤمنون إلا إذا رأوا العذاب الأليم، والمقصود من جواب فعل الدعاء هو غاية الجواب التي بعد حتى، فتلك هي مصبُّ الجواب. **(ينظر: ابن عاشور: 271/11).**

ومن آيات الدعاء على الإنسان بصيغة الأمر قوله تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ **(آل عمران: 119).**

فلفظة " مُوتُواْ"، في قوله (قُلْ مُوتُوا) هو دعاء بلفظ الأمر عليهم ليزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعز أهله، وأن يدوم غيظهم إلى أن يموتوا، أو يصير الغيظ قاتلهم، وسبب موتهم.

ثانيًا: أسلوب النهي:

كما قلنا سابقًا، إن الغرض من النهي في هذا المقام ليس النهي بحد ذاته، فخاشاه سبحانه وتعالى، إنما الغرض منه هنا هو الدعاء.

فنجد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾.

فقوله: (لَا تَذَرْ)، نجد دلالة "لا" الناهية هنا ليست للنهي، إنما للدعاء والتضرع والتذلل لله تعالى، وجاءت بصيغة النهي، ودلالة لفظة " لا تذر" أي "امْحُ من على وجه الأرض أي كافر.

فسيدنا نوح – عليه السلام - دعا على قومه بعد دعوته لهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وقال: (لا تذر)، أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا، فاستجاب الله له، فأَهْلَكَ جميع من على وجه الأرض من الكافرين.

ثالثًا: أسلوب الخبر لغرض التحقير:

إن الأسلوب الخبري يحمل معاني عدة، منها التحقير، والتوبيخ، والإعلان عن الحكم الشرعي بوضوح وقوة، ونجد في بعض آيات الدعاء على الإنسان ذات الأسلوب الخبري، جاءت لغرض التحقير.

ومن آيات الدعاء بأسلوب الخبر لغرض التحقير، قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. **(الأعراف: 44).**

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (هود:18).

فقوله: (أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ)، وقوله: (أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ)، تحملان أسلوبًا خبريًا لغرض التحقير والاستهزاء بالظالمين، إضافة إلى تقرير الحقيقة، وإظهار الاستحقاق الكامل للعنة، واستخدام أداة التنبيه "ألا" ليبين خطورة الأمر على الظالمين وأنهم محل استهجان، وتحقير، إذ يُعلن عن مصيرهم المؤلم" لعنة الله"، مما يزيد من تشنيع حالهم، وبيان خزيهم، وفي هاتين الصيغتين تأكيد قاطع لثبوت اللعنة على الظالمين، مما يُشعر بسوء عاقبتهم واستحقاقهم لذلك نتيجة ظلمهم.

واستخدم الأداة "أنْ" في قوله تعالى: " أنْ لعنة الله"، لأنها تُفيد الإخبار المباشر، والتقرير.

فاختلاف الأداتين نابع من اختلاف السياق البلاغي، فالأداة "أن" في قوله: "أن لعنة الله"، تهدف إلى تثبيت الحقيقة في وقوع اللعنة، أمّا الأداة "ألا"، في قوله: "ألا لعنة الله"، فهذه الأداة تُفيد التنبيه والتوكيد مع استدعاء انتباه السامع، والأداة هنا تتناسب مع قوة المشهد، وهذا التنوع يعكس إعجاز القرآن الكريم في اختيار الألفاظ بما يتناسب مع المعاني والسياقات المختلفة.

وكذلك الآيات (44، و60، و68)، من سورة (هود)، تحمل الدعاء بأسلوبٍ خبريٍ؛ لغرض التحقير.

والآيات هي:

- قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود:44).

فقوله: (بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)، تحمل الدعاء بأسلوب خبري؛ لغرض التحقير.

- قال تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾ (هود: 60).

فقوله: (أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ)، تحمل الدعاء بأسلوب خبري؛ لغرض التحقير.

- قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴾ (هود: 68).

فقوله: (أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ)، تحمل الدعاء بأسلوب خبري؛ لغرض التحقير.

ومن خلال ما سبق نجد أن اللغة في القرآن الكريم، تأتي دقيقة ومتناسقة بما يتناسب مع السياق، والمعنى المراد إيصاله، وهذا إن دلّ على شيء فما هو إلا دليل على إعجاز القرآن الكريم في اختيار الألفاظ.

الخاتمة:

بعد أن ألقت الباحثة من خلال دراستها الضوء على الدعاء للإنسان والدعاء عليه في بعض آيات الدعاء، دراسة في الألفاظ والأساليب، توصل البحث إلى نتائج عدة أهمها:

- وردت لفظة "غفرانك" في الدعاء بصيغة الأمر مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ **(البقرة: 285).**
- من خلال آيات الدعاء على الإنسان، نجد دعاء الكافرين في الحياة غالبًا ما تسبقه "لولا"، أمّا دعاؤهم في الآخرة تغيب عنه "لولا" وينوب عنها الاستفهام.
- إنّ أسلوب النهي جاء قليلًا في الخطاب القرآني.
- إن ارتباط النهي بالطلب، جاء لتخصيص الدعاء للمستقبل.

التوصيات:

نأمل من الباحثين أن يدرسوا آيات الدعاء للإنسان والدعاء عليه من نواحي مختلفة

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- الأزهار، زناد، دروس في اللغة العربية، بيروت المركز العربي للنشر والتوزيع، 1992م.

- الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح شافية ابن الحاجب، مع شرح شواهده، للبغدادي، حققهما، محمد نور الحسن، ومحمد، الزفزاف، ومحمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، 1935هـ، 1975م.
- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، ت(1480م)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دائرة المعارف العثمانية، ط1، 1984مـ تم تصويره من قِبل دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- الخطابي، الإمام، شأن الدعاء، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق- بيروت، ط3، 1992م.
- الزركشي: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، ت(794هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، الطبعة الأولى 1994م.
- السامرائي، فاضل صالح مهدي، معاني النحو، دار الفكر، عمان، ط2، 2003م.
- سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م.
- ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، السعودية، 2004م.
- ابن حنبل، الإمام أحمد، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، نشر: مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م.

- ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر 1984م.
- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1422هـ.
- ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر، ط2، 1970.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م.
- الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى الكفري، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أعده للطبع ووضع فهارسه، عدنان درويش، وحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1998م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار النشر، المطبعة الكبرى الميرية، مصر، القاهرة، 1882م، ط1.
- ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت.